عصمة اللسان والذهن في شرح محمّد بن يوسف السنوسي(ت895هـ) لمختصره في علم المنطق

د(ة). حفصة جعيط
جامعة الجزائر2– أبو القاسم سعد الله

ملخص:
يتناول هذا المقال جوانب ثلاثة تتعلق بالعلامة الجزائري محمد بن يوسف السنوسي، جهوده في مجال الفكر واللغة والعلوم الشرعية التي أبى أن تظلّ تدور في فلك العمل النظري، ومنهجه الموجه إلى الاجتهاد في السعي إلى ترميم الأعطاب التي أصابت البنية الاجتماعية والفكرية في أمته العربية الإسلامية، وطريقة صياغته مشروعه الهادف إلى الربط بين المعارف لتكوين الرجل الفاضل.
كان علينا استقصاء ما ورد في «**المختصر في علم المنطق**» والكشف عن الأسس المنطقية والفلسفية التي اعتمدها هذا العلاّمة، وحنكته في ربطها بعلوم اللغة لإيجاد الخيط الرابط بين هذه العلوم، أي علم المنطق والمصطلحات الفلسفية والمسائل اللغوية والبحث عن الدلالات الموجهة إلى مقاصده في النصّ. كما نظرنا في العامل الذي حدا به إلى الاجتهاد في غربلة لغة القرآن من الدخيل ووقوفه في وجه المعارضين للفكر الفلسفي ومغربا.
تبين من خلال معالجة هذه المدونة أنّ محمد بن يوسف أدرك أسباب وهن المجتمع وعسرَ علاجه دون اعتماد الإقناع لقداسة العقل في الإسلام، واختلاف مقامات المتلقين والتأثير في سلوكهم متأثرا بالدرجة الأولى بالأسلوب القرآني، لأن القرآن خطاب حواري وحجاجي في الوقت نفسه له قوة تأثير عقلي وعاطفي في المخاطبين، وأستطاع استثمار الفكر الفلسفي وعلوم اللغة والعلوم الشرعية ليوجهها في أبعاد الحجاجية.
الكلمات المفتاحية:
- تشغيل علم المنطق- تشغيل علوم اللغة- العلوم الشرعية - ثمار تعاضد العلوم

Abstract:
This research has three axes; Algerian scientist Mohammed Ibnou Yousef efforts in the field of thought, language, and forensic science. He was among the few Algerian spiritual scientists who lay the foundations of Islamic Law, linguistics and worldly sciences. In this regard, and in his « Summary Book, » he sought to create a virtuous man and mind as well as establishing a link between logic, language and philosophical concepts, thus challenging the antiquated speculations of Philosophy and Semantics. His objective was to concomitantly sift the Koran from intrusive material and preserve its authentic fabric. This work eventually strives to bring to the fore the logical and philosophical bases that framed his thought and granted him with expertise in connecting the latter to linguistics.

تمهيد:

يعدّ اتخاذ الموقف الذاتي من التراث بحدّيه، التأييد أو النفور، من العوامل التي لا تسمح بالتواصل المجدي بين الماضي والحاضر وتطوير التراث وهذا ما يسوقنا إلى الحديث عن اعتمادنا آليات منهجية في فحص المدوّنة «شرح المختصر في علم المنطق» للكشف عن حمولتها الفلسفية واللغوية، ومنهج محمد بن يوسف السنوسي، هذا العلامة الرباني التلمساني، في استنهاض العزائم في زمن مأزوم إذ تبين بعد القراءة المتأنية لآرائه أنّ مقدرته المنطقية والمنهجية في اللغة، وإن لم يكن جهده فتحا في مجال الدرس اللغوي والفلسفي، لا تقف عند الحدود النظرية كما هو الحال عند **أبي نصر الفارابي** (ت339هـ) في مؤلفه «آراء أهل المدينة الفاضلة» و«تدبير المتوحد» **لابن باجة** (ت 529هـ) حين أخذ عرش المسلمين يتهاوى بالأندلس، بل يريد أن تشغّل هذه الصناعات في الحجاج والإقناع والاقتناع ومقارعة خصوم الفكر وأنصار الجمود ومن فسدت سرائرهم وأقطع حجة على هذه الغاية هو «شرحه لمختصره في المنطق» الذي استغلق فهمه على العامة وبعض الخاصة مما ضاعف وعيه بحدّة الأزمة وتعطيل الناس القوة الناطقة وانصرافهم عن جوهر الدين.

ولا تنفصل عنايته بعلم الحديث والتفسير عن الصناعات الآنفة ذكرها فتسير كلّها في توجيه الأمة الإسلامية إلى ما يعتقها من أسر الضلالات التي طالما أرّقته، وهذا ما جعله يثري مؤلفه بأساليب المناظرة.

1-دوافع تأطير اللغة والمنطق:

يجوس أقطابُ الفكر جوانب النقص والسلامة في محيطهم بغية معالجة الفجوة فيه فهم «عادة أوّل من يدرك النقص والفساد»[1]، وهذا ما ينطبق على **الإمام السنوسي** الذي فتح عينيه في المغرب العربي الإسلامي على فتن وتفكك اجتماعي وانحراف لم تسلم منه لا الغوغاء ولا الخاصة، وشاع فساد الأمراء وتسلّطهم على الرعية وتقاتلهم لاعتلاء العروش وامتدّ إلى العائلة الواحدة غير آبهين بما تؤول إليه الأمة[2]. لقد هال الإمام ما حلّ بمجتمعه من انحراف امتدّ إلى فئة من العلماء فشنّع عليهم تصفيدهم العقول قائلا: « فعلى العاقل في زماننا هذا أن يستعمل ما يقدر عليه من الحيل في تحصيل ما يحتاج إليه من العلم، على وجه يحتاط به ألاّ يَسرقَ طبعُه شيئا من الطباع القبيحة التي توجد في علماء هذا الزمان»[3] .

أركس كثير من الفقهاء والمتصوفة في النظر القصير مما سمح للجهل والتفكير الخرافي والتعصب بالهيمنة على أذهان الناس، يحمل صورا منه مؤلف

---

[1] ولسون كولن. المعقول واللامعقول في الأدب. تر أنيس زكي حسين. منشورات دار الآداب- بيروت 1978م. ص246.

[2] ينظر: محمد بن عمرو الطمار. تلمسان عبر العصور. المؤسسة الوطنية للكتاب- 1980م. الجزائر، بدءا من صفحة 211.

[3] محمد بن يوسف. مكمل إكمال الإكمال. دار الكتب العلمية، دت. ج1/ ص289.

* هو الشيخ أبو عبد الله بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم ألف كتاب " البستان..." الذي يعرف بكثير من صالحي تلمسان وعلمائها. توفي بين 1025و1028هـ.

ابن مريم المديوني التلمساني* «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان»[1] . يقول **الإمام المغيلي** (ت909هـ) وهومن صلحاء زمانه وورعيه مقيما الدليل على ما أصاب الفكر من أعطاب معبّرا عن ضجره بكلّ جرأة: «وأمّا فقهاء زماننا هذا فهم في أنفسهم من الشيطان إلاّ عباد الله المخلصين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يخشون إلاّ الله »[2] . وشاع بين الناس الانفصام بين الروحانية الاعتقادية والروحانية السلوكية فصدّهم الفقر عن أداء الصلاة حتى كادت بيوت الله تُهجر[3] ، وسيطر المناوئون للإسلام من نصارى ويهود اتكأ عليهم الحكام وأصبحوا أصحاب نفوذ يأتمر بهم أهل البلاد[4] ، هذه المعاينة للواقع جعلت الإمام يتبيّن أسباب الوهن ويدأب على نهج طريق التغيير والصيرورة فاتّجه عقله إلى إصلاح العقول والألسنة.

منهجه في إيقاظ العقول:

لا يتواني **السنوسي** في تبرير منهجه في «شرح مختصره في علم المنطق» لتحقيق ما تطمح إليه نفسه من تجديد في الفكر والاجتماع وتخليصهما من رواسب الجمود، فيهيئ النفوس للعدة التي يقوم بها حين يعرف المنطق بأنّه:« قانون تعصم مراعاته بتوفيق الله تعالى، الذِّهن من الخطأ في فكره كما يعصم

---

[1] ابن مريم المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. تح محمد بن أبي شنب. المطبعة الثعالبية، الجزائر 1908م. ص32، 33، 35).

[2] محمّد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني. عمل اليوم والليلة. تح محمّد بن أحمد باغلي. منشورات ثالة، الأبيار 2008م. ص14.

[3] ابن مريم . البستان في ذكر أولياء تلمسان. ص 30.

[4] أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. دار الغرب الإسلامي، بيروت– 1998م. ج1. ص43.

النّحو اللِّسان من اللّحن في قوله»[1] ، ولعلّ غايته في نشر الثقافة المنطقية ودقة الاستدلال وقوة الحجة هي التي جعلت شهرة المؤلَّف تتخطّى الآفاق ويكثر شرّاح مؤلفاته مشرقا ومغربا، قال عنه تلميذه **الملالي:**« وهو شرح عجيب لم يُرَ مثله ولا يُرى والله أعلم أبدا»[2] .

ولم يكن **السنوسي** أوّل مفكر ولغوي خاض مباحث المنطق واللسان وتقويم الفكر فقد سبقه في هذا الأمر أقطاب الفكر الإسلامي أمثال أبي نصر الفارابي الذي أصاب من منطق أرسطو فحاول التأسيس لفلسفة اللغة ولكنّه عكس الأمر فرأى صناعة النحو مدخلا إلى صناعة المنطق، وذهب إلى المقارنة بين الصناعتين فعرف المنطق بأنّه:« آلة يقوى بها الإنسان على معرفة الموجودات، كما أنّ صناعة النحو تشتمل على الألفاظ، والألفاظ أحد الموجودات التي يمكن أن تعقل، لكن صناعة النحو ليست تنظر فيها على أنها أحد الأشياء المعقولة، وإلا فقد كانت تكون صناعة النحو، وبالجملة صناعة علم اللغة، تشتمل على المعاني المعقولة، وليست كذلك[3] ، وذهب **الفارابي** إلى أكثر من هذا حين رأى المنطق رئيس العلوم ويشاطره **ابن سينا(**ت427هـ**)** الحكم بصفة هذه الصناعة خادمة للعلوم وآلتها ووسيلة إليها[4].

---

[1] محمد بن يوسف. شرح المختصر في علم المنطق. مخ جامعة الملك سعود، رقم 6059. ورقة 4.

[2] أبو عبد الله محمد بن عمر الملالي التلمساني. المواهب القدسية في المناقب السنوسي. دار كرادة للنشر والتوزيع – الجزائر 2011م. الباب الأول/ 132.

[3] أبو نصر الفارابي. كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق. تح محسن مهدي، دار المشرق، بيروت 1968م. ص106.

[4] جميل صليبا.المعجم الفلسفي. الشركة العالمية للكتاب، بيروت–1994م. ج2/ ص428.

ويبقى **البون** بين منهجيهما أنّ مؤلفات **الفارابي** تندرج ضمن العلوم النظرية أما الشيخ **السنوسي** فندب نفسه لتحريك التاريخ بالعلوم النظرية ومعالجة النماذج المعتلة عمليا بدروس الوعظ معتبرا المنطق علما وآلة وفنّا وصناعة برغم معارضة بعض علماء زمانه مثل **ابن تيمية** الذي « يرى أن المعرفة البشرية دينية وطبيعية، فالدينية لا نحتاج فيها إلى المنطق(...) أما الطبيعية فإن المنطق لا يوصنا إل علم يقين فيها كذلك لأنّها تجريبية أكثر ممّا هي قياسية»[1].

يبرّر العلامة **السنوسي** بحجج قوية أسباب اعتماده علم المنطق في تقويم الفكر الإنساني ودراسة نواميس الطبيعة البشرية يمكن أن تصنّف إلى قسمين: الأول يتصل بمن يروم هذا العلم، والثاني يتعلّق بالعلم نفسه:

1.2 رقيّ الجنس البشري:

الإنسان نوع راق ونوع حقيقي ولا يقال إلا على أفراد متفقة بالماهية وليس تحته نوع، وهو كذلك نوع إضافي لاندراجه تحت جنس الحيوان[2]، ويلح على هذه الصفات التي تميّزه عن سائر الحيوانات وقوى روحه:« الإنسان وضع لمعنى واحد وهو معنى الحيوان الناطق»[3] . هذه المكانة هي التي تؤهل الفكر البشري للتفكير والخروج من دائرة الجمود والمحاكاة ولا يؤمن إيمانا مطلقا بالعقل لأنه غير

[1] محمد بن يوسف وشرحه لمختصره في المنطق. دراسة وتحقيق أسعيد عليوان. دار الكتاب الثقافي، الأردن 2009م. ص150.

[2] ينظر: محمد بن يوسف. شرحه لمختصره في علم المنطق. ورقة 12، 19.

[3] المصدر نفسه: ورقة 12.

معصوم من الزلات برغم إلحاحه على التفكير المنطقي« والعقل لا يؤمن عليه من الخطأ»[1] .

قيمة علم المنطق:

يشكّل المنطق آلة تشغيل العقل وتعطيلها يناقض الفطرة البشرية بصفة الإنسان أرقى المخلوقات، وبسلطان المنطق يميّز الإنسان بين الضلالة والهدى ولا يميل إلى السفليات والعلة أن «تعلم فنّ المنطق وحفظ قواعده وفهمها يسهّل للعقل وعر الأنظار ويتسّع به مجال الفكر مع الراحة والأمن من الخطأ في سلوك مفاوز الاعتبار»[2] .

وفي هذا المقام لا يستبعد اطلاعه على مقدمة ابن خلدون، وهو المعاصر له، ونهله من نفحات فكره إذ يقيم الأخير الدليل على فضيلة سلطان العقل على الجسد ووجوب تحصينه بعلم المنطق واستحقاق الإنسان هذه الفضيلة فالمنطق في نظره « قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعروفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات، وذلك لأنّ الأصل في الإدراك إنما هوفي المحسوسات بالحواس الخمس، وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الإدراك من الناطق وغيره، وإنما يتميز الإنسان بإدراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات»[3] .

---

[1] المصدر نفسه: ورقة:5

[2] المصدر نفسه: ورقة:5.

[3] ابن خلدون . المقدمة. تح أحمد جاد. دار الغد الجديد، القاهرة، ط1-2008م. ص472.

ومن البرهنة على مكانة الإنسان يرتحل الشيخ بمنهج عقلي حجاجي إلى تقديم الأدلة المقنعة بقيمة علم المنطق نظريا وعمليا وما استوجب تحوّله إلى ضرورة والضرورات في اصطلاح الفلاسفة هي « الأمر الدائم الوجود، والأمر الذي لا يمكن تصور عدمه، وهو مرادف للواجب، وضدّ الجائز، وبينه وبين الممكن تضايف» [1]. يزيح العلامة حرية الاختيار ويكشف عن فضل تأطير هذه الصناعة في تصحيح مسار الفكر الإنساني:« فقد اضطرّ إذا لمعرفة هذا العلم ليعرف العقل صحّة الطريق الذي يكتسبه منه ما جهله من التصورات وصحة الطريق الذي يكتسبه به ما جهله من التصديقات»[2].

2.2 شروط بلوغ الغايات:

أ- مراعاة القدرات العقلية:

لا يمكن أن تتحقق الأهداف إلا بالنظرة الحكيمة وفي هذا المجال يدرك الشيخ، بما أتاه الله من عقل متيقّظ استحالة تعميم تعلم قواعد المنطق بحكم الاختلاف الذي فُطر عليه البشر لحكمة إلهية، فهناك أصحاب العقول المستنيرة وهؤلاء يستغنون عن تعلّم قواعد المنطق واصطلاحاته وحفظ قواعده لطباعهم السليمة ومعاني المنطق التي تستقر في الفكر البشري، أما من هم أقلّ استعدادا فلا يخلون من الفكر ولكنهم في حاجة إلى قواعد المنطق وحفظ ضوابطه:« وهذا الاضطرار لاستعمال معاني قواعد المنطق في طلب العلوم المكتسبة محقق لكلّ واحد، أما الاضطرار لطلب اصطلاحاته وحفظ قواعده فليس عاما لكلّ أحد إذ

[1] جميل صليبا. المعجم الفلسفي. ج1/ ص759.

[2] شرح المختصر: ورقة 4.

الطبع السليم والعقل الذكي لا يحتاج إلى ذلك كما لا يحتاج إلى تعلم قواعد النحو وضابط العربية العربي الفصيح، بل الغنى عن تعلم المنطق أكثر من الغنى عن تعلم النحو لأن العلوم المنطقي عقلية محضة فكثير منها مركوز في قلب كل عاقل وإن لم يعبر عنها باصطلاحات المنطق، بخلاف النحو فإنه نقلي محض فغير العربي الفصيح لا يصل إلى معانيه وأحكامه إلا بالتعلم»[1] .

كان **ابن خلدون** (ت 808هـ) قد أكّد حقيقة تباين مستويات فهم الناس وطاقة استيعابهم فأورد في الموضوع بابا في مقدّمته وسمه «في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته» ويقتضي أمر الجزم بتأثر السنوسي بفكره الدراسةَ المتأنية لعصارة فكريهما، يقول:« اعلم أن تقين العلوم للمتعلمين يكون إنما مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب(...) هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأينا إنما يحصل في ثلاث تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه»[2] .

إن المؤشر الصُّراح على ذكاء الشيخ السنوسي تفرقته بين الأذكياء ومن دونهم ذكاء وبثّ رسالة العلم وفق ما يناسب كلّ فئة وقد سبق بذلك نظريات العلم النفس

---

[1] المصدر نفسه: ورقة:5.

[2] ابن خلدون. المقدمة ص536

الحديث الذي أصبح شغله الشاغل العناية بقياس الفروق الفردية وسيكولوجيتها والبحث في التكوين العقلي للإنسان ومفهوم التفوق وكيفية رعاية المتفوقين[1].

3.2.2 خطوات تعلم علم المنطق

أ- في هذا المقام يرسم سبيلين لاكتساب العلوم لا يستغني عنهما علم المنطق «التصورات أي معرفة الحقائق المفردة وتميزها عن غيرها» وهي التعريفات ومكوناتها الكليات[2]، وتسندها «التصديقات أي العلم بثبوت الأمر أو نفيه عنه» [3]وتسمى الحجج.

وتقدّم التعريفات على التصديقات لأنّ الأولى تصورات والثانية جمل خبرية[4]وهي الوحيدة الممثلة للقضية، في منظور السنوسي، وعليها يقوم الحجاج. فالعلم في نظره تصور وتصديق « ولمّا كان العقل لا يُؤمن عليه من الخطأ إذا سلك هذين الطّريقين وحده لكثرة التباس الباطل بالحق احتيج إلى قواعد عقليّة قطعيّة يعرفها العقل أوّلا، ويعرف صحّتها ضرورةً، ثم حينئذ يطلب بها ما جهله من العلوم التّصورية والتّصديقية، وهذه القواعد هي المسمّاة بعلم المنطق »[5]).

وبذلك تصبح غاية هذا العلم بلوغ المطالب المجهولة وتنحصر في التصورات والتصديقات «شرعنا فيما نتوصل به إلى التصديق المجهول وهو

---

[1] ينظر: أديب محمد الخالدي. سيكولوجية الفروق الفردية والتفوق العقلي. دار وائل للطباعة والنشر والتوزيع، 2008م.

[2] شرح المختصر: ورقة 4.

[3] شرح المختصر: ورقة 4.

[4] المصدر نفسه: ورقة 5.

[5] المصدر نفسه: ورقة 5.

القياس، بعد أن ذكرنا مبادئه وما يتركب منه وهو القضايا، وهذا المقصد الأعظم من هذا الفنّ أي القياس»[1]).

ب–ضرورة اختيار ما يتعلمه طالب علم المنطق:

يكتفي المتعلم بأربعة أبواب من هذا العلم، التصورات ومبادئها وهي التعريفات، واللّفظ المتصوَّر قد ينفرد ويدلّ على معنًى واحد، كإنسان، أو قد يكون مشتركًا يتعدّد مسمّاه فله أكثر من معنًى ،كالعين المبصرة والعين الجاسوس، أو قد يكون مجازيًّا ممّا يتعدّد فيه المعنى لمسمًّى واحد، فإنّ مسمّى اللّفظ ما وُضع له اللّفظ وضعا حقيقيًّا لا يحتاج إلى قرينة، ومعنى اللّفظ ما يعنيه المتكلِّم باللّفظ كان مسمّى له وهو المعنى الحقيقي، أو غير مسمّى له وبينه وبين مسمّاه علاقة وهو المعنى المجازي[2]، ويضيف إليها التصديقات ومبادئها ويهمل الأقسام الستة الأخرى منها الدلالة العقلية والطبيعية « فهذه ستة أقسام المعتبَر منها في علم المنطق قسم واحد وهو دلالة اللّفظ الوضعيّة»[3] .

وبهذه الخطوة، أي الغربلة، لا تختلط على المتعلم أبواب العلم وأقرب إلى هذا التصور ما يراه ابن خلدون من أن المنطق له قوانينه وأن السعي إلى معرفة حقائق الأشياء «قد يكون بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد فاقتضى ذلك تمييز الطريق الذي يسعى به الفكر في تحصيل المطالب العلمية ليتميز فيها

---

[1] المصدر نفسه: ورقة19.

[2] ينظر: المصدر نفسه: ورقة 24.

[3] المصدر نفسه: ورقة 6.

الصحيح من الفاسد فكان ذلك قانون المنطق»[1]، وبدون الغربلة ينفر منه المتعلم ولا يجنى شيئا من ثمار جهده، يقول **السنوسي**:« يعرض عما لا يحتاج إليه، ولا يتلف فيه جزءا نفيسا من العمر »[2].

إذن ضرورة الانتقاء وترك التفريعات وما لا يفيد الفكر ترشد المتعلم إلى اختصار الطريق لأصول المنطق واكتساب طاقة استيعابه والاكتفاء بمعرفة «ما يكتسب به التصورات والتصديقات وترك ما يشوّش الفكر مع قلة جدواه وندور استعماله من قواعد وتفريعات»[3].

ونصل إلى حصيلة أن **السنوسي** يرى المنطق منهجا وأصل العلوم وهي فرع عنه ومن أتقنه أصبحت جميع المعارف طوع يده من علوم لسان وعروض وبلاغة، يقول الشيخ: « وبالجملة فالعلوم كلّها ميسّرة طوع اليد لمن حقق المهم من هذا الفنّ إذ يسّر ذلك المولى تبارك وتعالى بفضله»[4]، ولا يستثني علوم الشريعة لأنه أسلم المنطق[5] يؤكّد الأمر قائلا: « وليشتغل بعد أن يحكم آلة العقل بالعلوم الشرعية استفادة وإفادة، علما وعملا بنية خالصة للدار الآخرة »[6] .

---

[1] المقدمة: ص473.

[2] شرخ المختصر: ورقة 20.

[3] المصدر نفسه: ورقة 4.

[4] المصدر نفسه: ورقة 5.

[5] ينظر: محمد بن يوسف وشرحه لمختصره في المنطق. دراسة وتحقيق أسعيد عليوان أسعيد 167-168 .

[6] شرح المختصر: ورقة: 5.

1. صلة المنطق بعلوم اللغة:

المنطق كما يراه الشيخ قوام استقامة المعارف ولم يحصر النحوفي الجانب الشكلي من اللغة ويجعله يبحث في أواخر الكلم وحالات الإعراب والبناء أو يفرد له بابا في مؤلفه هذا، فقد رام وضع ضوابط تعصم العلم نفسه من الفساد. وورد في فكر **الفارابي** ما لا يخالف منظور السنوسي حين ربط بين المنطق والنحو: «إنّ الألفاظ إنّما تدلّ أولا على ما عليه الأمور في العقل من حيث هي معقولة»[1]، فقد تعزّزت البحوث في هذا المجال فقال **التوحيدي**: «إذا اجتمع المنطق العقلي والمنطق الحسّي فهو الغاية والكمال» [2].

أذا كان النحو نسقا من القواعد من القواعد القابلة لتوليد بنيات غير محدودة كما يراه اللساني **Chomsky تشومسكي**[3]فإن البنية لا تخضع دائما لضوابط منطقية فإن قلت "حضر الجبل في البحر" فإن الخاصية التركيبية في الجملة سليمة ولكنها منحرفة عن المستوى الدلالي والوظيفي ولا يتحقق فيها الصدق ولا يقصد به التطابق مع الواقع بل خروجها عن الصورة المنطقية في الكلام والالتباس في دلالتها، وهذا السر في تأكيد الدلاليات التوليدية وهي علم حديث، «على دور

---

[1] أو نصر الفارابي . كتاب الحروف . تح محمد مهدي. دار المشرق، بيروت 1968م. ص74.

[2] أبو حيان التوحيدي. المقابسات. تح أحمد توفيق حسين. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1980م. ض123

[3] ينظر: حسان الباهي. اللغة والمنطق. المركز الثقافي– ودار الأمان للنشر، ط1، الرباط 2000م. ص67 وما بعدها

المنطق في البحث اللساني إذ من غير الممكن توليد الجمل النحوية دون ربطها بصورها المنطقية»[1].

بما أنّ المنطق آلة العقل جعله السنوسي خادما لعلوم اللغة والدين والدنيا ويراها علوما متكاملة فكانت مؤلفاته مؤسسة على أصوله وتعدّ اللغة من مقوّمات الأمة فسخّر لها علم المنطق ولعلّه أحسّ بالزلزال المقبل على الإرث الحضاري الإسلامي فتعهّد اللغة بالدراسة والغربلة من القواعد غير الأصولية مدركا ببصيرته المستنيرة أنّها عماد الحضارة وبتضعضعها تنفك الروابط فيها، يقول ابن خلدون:« فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة (...) والذي يحصل أنّ الأهم المقدم منها هو النحو إذ به يتبين أصول القواعد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة(...) فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة»[2].

وفي هذا الحقل اللغوي خاض مجال ما يسمى في الدراسات الحديثة " بنظرية السياق" حين ربط بين الدلالة والسياق ليكتشف من ينفض الغبار عن تراثنا أن مفكرينا كان لهم قدم السبق في كثير من الحقول المعرفية حيث كانوا أسبق إلى دراسة السياق والتأسيس له وما أضافت الدراسات الغربية الحديثة إلا التنظير.

راح الشيخ السنوسي يركز جهده في علم الدلالة، وتقدّم تعريفها المبحث لأهميتها، يقول:« واعلم أولا أنّ الدلالة فهم أمر من أمر، وقيل هي كون أمر

---

[1] المرجع نفسه: ص59.

[2] المقدمة: ص 547.

بحيث يُفهم من أمر فُهم أو لم يُفهم »[1]، وربط بين السياق والدلالة دون أن يهمل الدلالة المعجمية المركزية والقرينة، فيرى أن «تعيين أمر للدّلالة بنفسه أي من غير قرينة إذا كانت حقيقيّة، أو بقرينة إذا كانت مجازا، فالدّلالة فيها اختيارية تتغيّر بتغيّر الوضع»[2]، والواضح أن المراد بالعبارة الأخيرة السياق.

خاض من خلال المبحث أقسام اللفظ فصنفه إلى لفظ مفرد ولفظ مركب، وقسم المفرد إلى مشترك بأن كان له معنيان فأكثر مثل عين باصرة وعين جارية، ومنفرد وهو الذي اتحد مسماه بأن لم يوضع إلا لمعنى واحد كرجل وإنسان. وإذا اتجهنا إلى الدراسات اللسانية الحديثة لنستكشف قيمة مثل هذه الاجتهادات التي جاد بها فكر علمائنا قديما يتبين لنا أن علم الدلاليات التوليدية يؤكّد على دور المنطق بالنسبة للبحث اللساني، ويفترض بنية عميقة وبنية سطحية للمفردة[3] .

ويبدو أن **السنوسي** يرغب في تصحيح كثير من التقسيمات التي جاءت نتيجة التواصل مع الثقافة اليونانية وبلغت عند بعضهم حدّ المحاكاة منها، تقسيم الزمن إلى حاضر وماض ومستقبل ومن ذلك قوله: « زيد قائم(...) وزيد حصل له أمر القيام أو يحصل له في الماضي أو الحال أو الاستقبال»[4]. وقدّم الوجه الصحيح – في منظوره– لاستخدام اسم التفضيل ودلالته:« تقول يوسف أحسن من

---

[1] شرح المختصر: ورقة 6.

[2] المصدر نفسه: ورقة 7.

[3] ينظر: عبد القادر الفاسي الفهري. اللسانيات واللغة العربية. الدار البيضاء 1985م. بدءا من صفحة 100.

[4] شرح المختصر. ورقة 11.

إخوته لأنّ إضافة إخوته إليه يستلزم خروجه منهم فليس هو بعضهم ولو قلت يوسف أحسن الإخوة من غير إضافة إليه لجاز »[1].

ويصحح طريقة الاشتقاق ويراها لا تخضع لقواعد المنطق مما قد يسيء إلى اللسان العربي:« فلا يقال مالك بن أنس عَلَم ولا الشافعي علَم بل يتوصل إلى جملة على تلك الأفراد بالاشتقاق منه والإضافة، فيقال مالك عالم أو مالك ذو علم »[2]ويميز بين المحمول والموضوع وأثرهما في توليد المعنى: « لو قلت كلّ إنسان حيوان أو بعض إنسان، فالإنسان في المثال الأول والحيوان في المثال الثاني هما الموضوع إذ عليهما وقع الحكم، أمّا لفظ " كلّ" و" بعض" وما في معناهما فإنما جيء بهما لبيان الأفراد المحكوم عليها هل هي جميع أفراد الموضوع أو لبعضها»[3].

ويبرز مكونات القضية الحملية وشروطها:« القضية الحملية تتركب من موضوع ومحمول ولنسبة بينهما إيجابية أو سلبية وإنّه لا تتمّ قضية إلاّ بذلك»[4]، وينتقل إلى العلاقة بين المحمول والموضوع: «نسبة المحمول إلى الموضوع أمر ضروري ونسبة الموضوع إلى المحمول أمر غير ضروري(...) فقد يكون السلب ممكنا في نسبة المحمول إلى الموضوع ممتنعا في نسبة الموضوع إلى المحمول

[1] المصدر نفسه: ورقة: 43.

[2] المصدر نفسه: ورقة 14.

[3] المصدر نفسه: ورقة27.

[4] المصدر نفسه: ورقة 33.

كقولنا الإنسان ليس بكاتب على الإمكان ويمتنع أن نقول الكاتب ليس بإنسان»[1]. ونعتقد أنّه يسعى إلى إصلاح العطب الذي أصاب الفكر على أيامه وكان يخشى أن يتسلل إلى النحو العربي وهو مفخرة العرب. ويشرح معنى الرابطة والتي بدونها لا تكون القضية وينقلنا من لغة النحويين إلى لغة المناطقة:« وإذا قلت زيد هو قائم لفظة هو تسمى رابطة لأنّه لا معنى لها الدلالة نسبة المحمول إلى الموضوع بالإيجاب أو السلب»[2]. فالمحمول والموضوع هما في اصطلاح النحويين المبتدأ والخبر أما الرابطة فهي ضمير الفصل لأن الجملة من محمول وموضوع ورابطة تسمى رابطة الثلاثية أما في حالة غياب الرابطة فتصبح ثنائية وتتحرك الدلالة.

وخاض ميدان الجمل الشرطية وقسمها إلى منفصلة ومتصلة ولا يمرّ على مبهم إلاّ بعد فك رموزه فيقدّم لكلامه بتعريف صنفي الجملتين :« لما كانت القضيتان اللتان تركبت منهما الشرطية تارة يحكم بينهما بالصحة بمعنى متى صدقت الأولى صدقت الثانية وتارة يحكم بينهما بالفساد إما في الثبوت و إمّا في النفي وإمّا فيهما فانقسمت الشرطية لذلك إلى متصلة ومنفصلة»[3].

توصل هذا البحث إلى نتائج نحوصلها في نقاط:

---

[1] المصدر نفسه: ورقة 36، 37.

[2] المصدر نفسه: ورقة 30.

[3] المصدر نفسه: ورقة:27.

قدرة **محمد بن يوسف** على الربط بين اللسان والعقل وهذه حصيلة هامة لا يدحضها العلم الحديث، فليس هناك عالم لسان يفصل بين اللغة والفكر، ولا يميز علماء النفس بينهما بصفة اللغة أداة تواصل بين البشر ولها وظيفة اجتماعية.

1- النحو وحده لا يصون اللسان فقد تستقيم الجملة تركيبا ولا تؤدي معنى مما يقتضي الأمر الاتكاء على قواعد المنطق، وشبيه بهذا ما ورد في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني.

2- يريد العلاّمة الخروج بالعلوم من المجال النظري إلى الميدان التطبيقي ولا يرى قيمة لها إن ظلت في طيات الكتب.

3- سار بمنهج واضح يتطابق وعلم المنطق الذي نادى به، فكشف عن قيمة المنطق وشروط تعليم قواعده وأهميته ودوره في غربلة لغة القرآن من كلّ ما هو غير أصولي من خلال ربطه بعلم الدلالة.

4- ما حوى هذا البحث إلا القليل من التصورات المتشعّبة للعلاّمة وبسطه قواعد المنطق والحديث عن إيمانه بقيمته وفضله في إصلاح اعوجاج الفكر، وأقطع حجّة على مبتغاه ما ختم به مؤلفه: «نسأل الله تعالى أن ينفع به وبأصله كلّ من سعى في تحصيلهما النفع الذي يبلغ في الدنيا والآخرة إلى رضى المولى »[1] .

[1] المصدر نفسه: ورقة:103.

هوامش البحث:

- ابن خلدون . المقدمة. تح أحمد جاد. دار الغد الجديد، القاهرة، ط1–2007م.
- ابن مريم المديوني التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. تح محمد بن أبي شنب. المطبعة الثعالبية، الجزائر 1908م.
- ابن يوسف محمد. مكمل إكمال الإكمال. دار الكتب العلمية، دت. ج1
- ابن يوسف محمد وشرحه لمختصره في المنطق. دراسة وتحقيق أسعيد عليوان. دار الكتاب الثقافي، الأردن 2009م.
- ابن يوسف محمد. شرح المختصر في علم المنطق. مخ جامعة الملك سعود، رقم 6059.
- التوحيدي أبو حيان. المقابسات. تح أحمد توفيق حسين. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1980م.
- الفارابي أبو نصر. كتاب الحروف . تح محمد مهدي. دار المشرق، بيروت 1968م.
- الفارابي أبو نصر. كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق. تح محسن مهدي، دار المشرق، بيروت 1968م.
- المغيلي محمّد بن عبد الكريم التلمساني. عمل اليوم والليلة. تح محمّد بن أحمد باغلي. منشورات ثالة، الأبيار 2008م.
- الملالي أبو عبد الله محمد بن عمر التلمساني. المواهب القدسية في المناقب السنوسية. دار كرادة للنشر والتوزيع – الجزائر 2011م. الباب الأول.

المراجع:

- الباهي حسان. اللغة والمنطق. المركز الثقافي- ودار الأمان للنشر، ط1، الرباط 2000م.
- الخالدي أديب محمد. سيكولوجية الفروق الفردية والتفوق العقلي.دار وائل للطباعة والنشر والتوزيع، 2008م.
- سعد الله أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. دار الغرب الإسلامي، بيروت- 1998م. ج1.
- صليبا جميل. المعجم الفلسفي. الشركة العالمية للكتاب، بيروت-1994م. ج2
- الطمار محمد بن عمرو، تلمسان عبر العصور. المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر 1980م.
- الفاسي عبد القادر الفهري. اللسانيات واللغة العربية. الدار البيضاء 1985م.
- كولن ولسون المعقول واللامعقول في الأدب. تر أنيس زكي حسين. منشورات دار الآداب- بيروت 1978م.